المعارف والأفكار الجغرافية عند شعوب الشرق القديم

د.عماد مطير خليف
جامعة ميسان - كلية التربية

مقدمة

كان لظهور الحضارات القديمة في كل بلاد مابين النهرين ومصر وبلاد الشام ما يمكن اعتباره مولدا للحضارة الحديثة بوجه عام (١) والحضارة تعني الانتقال من الاحوال البدائية الى الاحوال المتحضرة عبر التاريخ . إلا ان هذا الانتقال كان نتيجة للاحتكاك المباشر بشعوب غير مألوفة وأكثر تمدنا .وهو مايتطبق بالفعل على الحضارات القديمة التي تكونت في أراضي العالم الإسلامي قبل انتشار الدعوة الإسلامية . وكان لهذه الحضارات شان في تقدم الإنسانية عبر تاريخها الطويل . وان اختلفت مقوماتها الحضارية (٢) إلا انه عند التحدث عن هذه الحضارات القديمة يعني بذلك الحضارات العربية القديمة التي وضعت الأسس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للحضارات العالمية (٣) التي ساهمت منذ أقدم العصور مساهمة جيدة في تطور المعارف العالمية المختلفة خاصة في مجال تطور الفكر الجغرافي الوصفي والفلكي آذ ان الانسان حاول ان يجتهد في تحسس مكانه في الأرض ويتعرف على الظواهر الجغرافية من حوله وتطلع الى السماء بنجومها وكواكبها محاولا فك طلاسمها كما تطلع الى البحار محاولا تطويعها لإرادة حياته . ان طبيعة الحياة في موطن الحضارات القديمة أوجبت على سكانها الاهتمام بالواقع الجغرافي كما وأساليب وأنماط الحياة لقد أسهم الموقع الجغرافي الممتاز لحضارات الشرق القديمة في قلب العالم في فتح أبواب الانفتاح على العالم فأفلح سكان هذه الحضارات في كسر حاجز المسافة في البر والبحر فحركوا رحلاتهم متسللين عبر الدروب والمسالك مخترقين الحواجز مؤسسين لمعارف وأفكار أثرت التراث الإنساني . ولكي نستوعب الرصد الجغرافي الذي انتهى إليه الاجتهاد الجغرافي النشيط للإنسان لابد من مطالعة قصة كل من المصريين القدماء والبابليين والفينيقيين والعرب الجزر يون من هذا الاجتهاد.

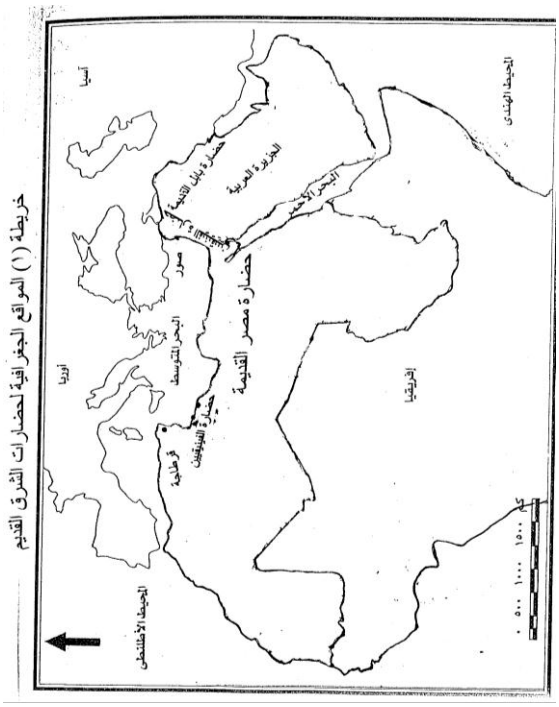

خريطة (١) المواقع الجغرافية لحضارات الشرق القديم

أولا / حضارة قدماء المصريين

كانت حضارة مصر الفرعونية منذ العصور القديمة من بين الحضارات العريقة التي جمعت الكثير من المميزات الجغرافية والحضارية التي خلفها الانسان المصري القديم في عدد كبير من الآثار الباقية كالاهرامات والمخطوطات المكتوبة على ورق البردي (٤) وقد جدت في مصر معلومات تاريخية أثرية متمثلة في حضارتها القديمة أكثر من أي بلد أخر في العالم . حيث حاول المصريون القدماء وضع تفسيرات للظاهرات الطبيعية للعالم المنظور آنذاك .منها ماهو أسطوري ومنها ماهو فلكي . فالتفسير الأسطوري يتمثل في خلق الكون أما التفسير الفلكي فيتعلق بشكل الأرض وحركة النجوم والكواكب . وكانت نظرتهم تقوم على ان الوجود جميعه بما فيه الأرض والسماء قد نشاء من المحيط الأزلي (٥) كما كانوا يطلقون على اله الشمس اسم ((آمون رع)) الذي ولد زهرة ((اللوتس)) التي هي نامية على سطح ذلك المحيط (٦) وقد اعتبر المصريون القدماء ان الماء اصل كل خلق . كما اعتقدوا ان الماء قد ارتفع عن المحيط وقام بخلق اله الهواء المسمى ((شو)) ثم جعله يقوم بفصل أخته ((نون)) السماء عن اخية ((كب)) الأرض (٧) . امانظرة قدماء المصريين لشكل الأرض وتفسيرهم لها فقد اعتقدوا إنها مستطيله الشكل تمتد في اتجاه شمالي جنوبي (٨) وتشبه قرع مستوي وسطحها أما مستوي او مقعر وعلى طول هذا المستطيل يجري نهر النيل في حوض ضحل ٠ حيث ان بلاد مصر تحتل الأراضي الضحلة التي يجري فيها النيل٠ كما اعتبروا ان الشمس أعظم الالهه وقد خصصوا لعبادتها أضخم معابد هم والبعض يعد الأهرام رمزا مقدسا للشمس وقد فسروا اختفاء الشمس ليلا على أساس ان الشمس في حركتها تمر مخترقة الجبال التي تقع على حافة الأرض ثم تتحول الى قارب ليلي وتطفو منسابة على طول نهر آخر من النيل وهو المجرى السماوي للنيل٠ عندها تقوم الشياطين بالبحث عنها لإيقافها عن الحركة ٠ لكن دون جوى٠فيبتهج عندها الموتى لزيارة الشمس إياهم كما استطاع قدماء المصريين في عصور ما قبل التاريخ تحديد الأماكن على سطح الأرض وأوجدوا التقويم الشمسي لأول مرة في التاريخ ٠ فقد اوجد الطبيب ((توت)) في سنة ٤٢٣٦ ق ٠ م هذا التقويم ٠ وذلك على أساس ظهور((نجم الشعري اليمانية)) قبل فيضان نهر النيل كل سنة ويكون ظهور هذا النجم قبل شروق الشمس – ومن ثم فقد حسب المصريون الفترة التي يظهر فيها هذا النجم مع فترة الفيضان بنحو- ٣٦٥ - يوما وبذلك حسبوا الربع بعد ثلاث سنوات أي في السنة الرابعة يكون هناك يوم واحد يضاف الى العدد- ٣٦٥- فيصبح في السنة الرابعة ٣٦٦ يوما (١٢) ، حيث إنهم ومن خلال معرفتهم بموسم الفيضان حددوا الوقت وعرفوا فصول السنة مستعينين بحركة النجوم ومواعيد ظهورها حيث قسموا السنة المصرية الى ثلاثة فصول هي فصل الفيضان (أخت) وفصل الزرع (برت) وفصل نزول النيل (شمو) وقد حددوا كل فصل بأربعة اشهر ٠ رقمت بأرقام ترمز لكل شهر ثم بدلت الأرقام لتحل محلها اسماء الشهور المعروفة في التقويم القبطي (١٣)٠ كما أبرزت مهارات المصريين الفلكية من خلال تقسيمهم المنطقة الممتدة على طول خط الاستواء الى ستة وثلاثين قسم يحتوي على كل قسم منها على سطح النجوم ومجموعاتها وأجزاء من هذه المجموعات الأمر الذي يجعل إمكانية رصد ظهور النجم كل عشرة أيام متعاقبة ٠ كما ان المصريين القدماء وضعوا في كل معبد كاهن يراقب حركات النجوم كما انه في مدينة هليوبوليس كان هناك كاهن خبير بمراقبة الشمس سمي بالرائي العظيم (١٤) ٠ كما أنهم قسموا النجوم الى قسمين: الثوابت وهي النجوم الظاهرة على الدوام في السماء واستطاعوا تشخيص ٣٦ نجماً منها والنجوم السيارة وهي التي تدور في السماء بلا تعب او كلل وشخصوا خمس نجوم هي عطارد والزهرة والمشتري وزحل والمريخ(١٥)٠ كما تمثلت نظرتهم في استغلال الموارد المعدنية في جزيرة سيناء وال نوبا ٠ وذلك برسم الخرائط لمواقع المناجم والمسالك الجغرافية التي تؤدي اليها بالرغم من ان الخرائط المصرية القديمة كانت ترسم على ورق

البردي الذي تعرض معظمه الى التلف (١٦)٠ وقد عثر على خريطة مصرية قديمة يرجع تاريخها الى القرن الرابع عشر الميلادي وهي مازالت محفوظة في احد متاحف بريطانيا ٠ كما إنهم استخدموا الأساليب الهندسية لمعرفة مساحة الأراضي الزراعية ورسموا خرائط تظهر الأودية والجبال مثل بردية تور ينو المعروفة ببردية الذهب والمحفوظة بمتحف تور ينو بايطاليا (١٧) ٠ كما اهتدى المصريون أيضا الى معرفة تسجيل الإحصاءات الدقيقة للسكان التي أمكن على ضوءها دراسة المشاريع الزراعية والعمرانية التي ازدهرت في مصر حيث كانت معابده معاهد ثقافية تشمل على ساعات دقيقة لحساب الزمن ومواعيد فيضان النيل (١٨)٠ ونتيجة لمعرفتهم بالدول ألمجاوره لهم آنذاك في آسيا وشمال أفريقيا وسواحلها الشرقية فقد عقدوا الاتفاقات التجارية والسياسية مع هذه الدول خاصة مع الفينيقيين ٠ في بلاد الشام وبلاد فارس . وذلك لغرض الحصول على الأخشاب التي كانت مصر في حاجة اليها لبناء السفن واعمال البناء . وهي صناعات كانت منتشرة بين قدماء المصريين . الى جانب ذلك كانت للمصرين القدماء خبرة واسعة في مجال الملاحة البحرية .مما جعلهم يقومون بدور مهم في هذا النشاط البحري ولعل اشهر رحلة جغرافية قديمة ذكرت لقدماء المصريين تلك الرحلة التي أرسلتها الملكة ((حتشبسوت)) الى بلاد ((بونت)) عام ١٥٠٠ق.م .المكونة من خمس سفن .والتي كانت من أهدافها جلب شجرة البخور لغرض تزيين معبدها (١٩) .وقد كانت الملكة حتشبسوت من أكثر ملوك مصر اهتماما بالملاحة حيث تم في عهدها حفر قناة ملاحية ربطت بين نهر النيل والبحر الأحمر حيث امتدت هذه القناة في وادي الطليمات مرتبطة بالبحيرات المرة لتصب بالبحر الأحمر عند خليج السويس (٢٠).بالإضافة الى ذلك كان للمصريين رحلة كشفية أخرى تمثلت بالمرحلة الكشفية الكبرى التي شملت على الطواف حول القارة الأفريقية والرجوع عن طريق جبل طارق او ما يعرف بأعمدة هرقل في عهد الملك نخاو (٢١) والذي كان مهتما بالنشاط البحري الجغرافي .

ثانيا: البابليون:

لقد عاصرت الحضارة البابلية في قديم العصور حضارة مصر القديمة وكان كثير من العلماء يعتبرون البابليين من أوائل الجماعات التي قامت برسم الخرائط التفصيلية لمناطق سهل العراق في الألف الرابع قبل الميلاد (٢٢)وبحكم طبيعة الأراضي المنبسطة المترامية الأطراف التي تحيط بمدينة بابل (٢٣)وأحاطوا الأرض ببحار لانهاية لها . لقد شمل الفكر الجغرافي الأسطوري عند البابليين نظراتهم في خلق الكون التي تقوم على أساس ان الكون خلق قبل ان تسمى السماء وقبل ان يعرف للأرض اسم (٢٤).لهذا كان البابليون يعتقدون بان اصل الأرض والسماء من الماء الأزلي الذي هو المحيط الاول الأصلي وان العالم محصور داخل قبة السماء وان لهذه القبة أعمده وراء البحر (٢٥).حيث ورد في قصة الخليقة البابلية ان المياه الأولى كانت الأصل الذي ولدت منه كل الأشياء وتألفت المياه الأولى من عنصرين مختلطين هما الماء العذب وهو (العنصر المذكر) والماء المالح (وهو العنصر المؤنث) وقد عد البابليون الماء العذب الاها وأسموه ((ابسو)) كما أسمو الماء المالح (تيامة)واعتقدوا ان جميع الالهه قد ولدت من هذين الإلهين الأبوين ٠ حيث فصل الإله ((مر دوخ)) جسم ((تيامة)) الى نصفين خلق من النصف الاول السماء ومن النصف الثاني الأرض لقد كانت لهذه المعرفة ألجغرافيه عند البابليين بشان الأرض ومعرفة النجوم والمهارة في الرصد الفلكي بالأدوات البسيطة المستخدمة لديهم ذات فائدة في معرفة فصول السنة والتقويم الشمسي والقمري حيث قسموا اليوم ١٢ قسما وكل قسم يساوي ساعة مضاعفة من الساعة المستخدمة حاليا كما قسموا الساعة ((٣٠)) جزءا كل جزء يساوي اربعة دقائق من الدقائق المستخدمة حاليا كما قسموا السماء الى ١٢ ساعة بابلية وقسموا دائرة البروج بواسطة النجوم الى ١٢ قسم وسموا كل قسم باسم نجم من النجوم الثوابت واستخدم البابليون أقصى ما توصلت أليه الرياضيات البابلية من تطور في هذا المجال ٠ حتى أنهم استخدموا المتواليات الحسابية في حساب أوقات ظهور النجوم وطلوع القمر ٠ وقد برع البابليون القدماء في استخدام الإسطرلاب لحساب أبعاد النجوم بالدرجات٠ وساعد ذلك على استخدامهم للساعات الشمسية والمائية والرملية لحساب الوقت حيث كانت تلك الساعات من أوائل الساعات المستخدمة في التاريخ (٢٧)كما أمكن للبابليين من خلال دراسة الفلك ورصد النجوم والكواكب ان توصلوا الى معرفة تنقلها عبر السماء وتسجيل ظاهرة الكسوف والخسوف إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول الى تفسير لها كما اهتموا بدراسة الخرائط الفلكية بهدف إمكانية التوصل الى شتى جوانب المعرفة في هذا المجال . ولكنهم لم يستطيعوا الوصول الى براهين ثابتة فجاءت تفسيراتهم خياليه في تصوير ذلك غير ان احد الفلكيين البابليين ويدعى ((نيوريمانو)) استطاع ان يستخدم جداول الشمس والقمر سجل فيها حسابه للوقت الذي تستغرقه كل من الشمس والقمر في دوراتها اليومية والشهرية والسنوية بان حسب طول السنة بثلث مائه وخمسة وستين يوما وست ساعات وخمسين دقيقة وأربعين

ثانية (٢٨) وقد اعتبر الجدول هذا أقدم جدول فلكي علمي ذي قيمه في علم الفلك لقد كان البابليون في تلك الفترة ينظرون الى الكواكب المعروفة آنذاك (عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) على أنها القوى التي تتحكم في مصائر البشر وان الآلهة البابلية الخمسة تمثل هذه الكواكب وقد اقتبس الإغريق الكثير من الحضارة البابلية خاصة في مجال الفلك حيث كانت الكثير من اسماء الفلكين البابليين معروفة لديهم أمثال (نبوريانوس) و(كيدينو) كما ان الإغريق والرومان اخذوا عن البابليون الاهتهم عشتا ر والتي احتلت مكانا بارزا في ديانة سكان العراق الاقدمين فعبدوها تحت اسم (افروديت عند الإغريق و(فينوس) عند الرومان . لقد نظر البابليين القدماء الى السماء نظرة تقديس واحترام لكونها مقر لمعظم ألهتهم فالإله انو تمثله السماء والإله انليل هو اله الهواء والجو والظواهر المتعلقة بها وقد أسموه (بالرب الهواء) الذي فرض شريعته على جميع العالم وله شبكة مقدسة يحبس فيها كل من يحنث في قسمة او يقسم زورا . كما ان البابليين يرعوا أيضا في رسم الخرائط الزراعية وخرائط التضاريس والمدن ومن أهم خرائطهم خارطة مدينة اومه (تل جوفه) والتي رسمت لتحديد المساحات الزراعية كما تعد خريطة مدينة نفر من أقدم خرائط المدن المعروفة قديما إذ يعود تاريخها الى الألف الثاني قبل الميلاد وكانت عالية الدقة لدرجة ان المنقبين الذين وجدوها استفادوا منها في التعرف على المواقع المهمة في مدينة نفر الأثرية . كما يرع البابليون في رسم الخرائط العسكرية التي توضح مواقع العمليات العسكرية وتصور مراحلها (٢٩) ويجمع اغلب المؤرخين على ان البابليين تفوقوا على نظرائهم المصريين في مجال رسم الخرائط على الرغم من ادعاء بعض الباحثين المصريين ان الطبيعية قد خدمت العراقيين الذين رسموا خرائطهم على الرقم الطينية فحفظها التاريخ في حين ان الخرائط المصرية .المرسومة على أوراق البردي كانت عرضة للتلف الامر الذي جعل الخرائط المصرية القديمة الواصلة إلينا قليلة . وهذا يتنافي مع الحقائق التاريخية الثابتة التي تشير في معظمها الى ان قصب السبق كان للبابليين في مجال الخرائط . حيث يحتفظ المتحف البريطاني بخريطة بابلية محفورة على لوح من الطين تمثل العالم المعروف لدى البابليين (٣٠) كما ان البابليين رسموا الخرائط الطويغرافية على ألواح مستوية من الطين اشتملت على رموز الجبال على هيئة أقواس متداخلة وأخرى للمدن على هيئة دوائر (٣١).ومن تلك المعلومات الجغرافية التي خلفتها الحضارة البابلية يتضح ان البابليين كانوا على معرفة جغرافية بتفسير اصل الكون وشكل الأرض وحركات الأجرام السماوية وعدد ساعات اليوم .

ثالثا : الفينيقيون :

يعتبر الفينيقيون احد فروع السلالات العربية السامية التي كانت مستقرة في أراضي شبة الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام . حيث اتجهوا منها على شكل موجات بشرية متتالية .نحو الساحل الشرقي لشبة جزيرة العرب حيث استقروا في جزيرة البحرين وعملوا في صناعة السفن والصيد غير إنهم مالبثو ان هاجروا مرة أخرى باتجاه جنوب العراق الذي لم تكن بيئته تلائم طبيعتهم فاتخذوا من نهر الفرات طريقا لهم عبروه بسفنهم متجهين الى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وبعد استقرارهم تمت لهم السيطرة على التجارة من أقصى حوض البحر المتوسط في الشرق وحتى مضيق جبل طارق في الغرب بل تعدوه الى السواحل الغربية لاروبا مما جعلهم سادة البحار في تلك الفترة . إلا ان الفينيقيين اتجهوا نحو الساحل الإفريقي للبحر الأبيض المتوسط نتيجة الضغط عليهم من قبل الآشوريين آنذاك بالإضافة الى تزايد عدد السكان وضيق الرقعة الزراعية في الوطن الام إضافة الى الفيضانات التي تتعرض لها دولتهم كل تلك الظروف جعلتهم ينطلقون من صور بقيادة الأميرة (اليسار) عيسا ر ابنة الملك ميتينوس ليبنوا قرطاج عاصمة المجد وملكة البحار تلك المدينة التي حققت مرتبة ممتازة في الرقي والتمدن والازدهار في جميع الحقول مكنتها من فرض سيطرتها على المستعمرات المغربية ولعب دور حضاري في شمال أفريقيا ومن الغريب ان المدن الفينيقية الشرقية الأصل . لم تلعب دورا فعالا في السياسة الدولية في تلك الفترة كالتي لعبتها المدن الفينيقية الغربية (٣٣) .ربما كان سبب ذلك يعود الى ان المدن الفينيقية الشرقية كانت في طريق الدول التي ظهرت كقوة في الشرق القديم ووقوعها تحت سيطرتها (٣٤) .ومهما يكن من امر هذه المدن الفينيقية سواء الشرقية منها او الغربية فان شهرتها كانت تعتمد في أساسها على نشاطها الاقتصادي الذي هيأ لها مكانه تجارية بين أقطار العالم القديم مما أدى بهم الى إنشاء مراكز تجارية على الساحل الأفريقي الشرقي والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي. ومامن شك في ان ازدهار تجارتهم ونجاحهم في التبادل التجاري مع مختلف الحضارات الأخرى قد أثارت فيهم حب المغامرة وذلك لفرض سيطرتهم تجاريا على الأماكن التي يصلونها . ومن أهم الرحلات الفينيقية التي ذكرت تاريخا الرحلة التي قام بها حنون القرطاجي عام ٥٢٠ ق.م. إلا ان حنون هذا الذي تشير إلية العديد من المراجع الجغرافية على انه عالم جغرافي لم يكن في حقيقة أمره إلا شخصية اعتبارية

كبيرة قام بجولة تفتيشية على طول الساحل الإفريقي الغربي الذي كانت تسيطر علية قرطاجة حيث قدم تقريراً – على ما يبدو- يمجد فيه ذلك الإبداع الذي حققته قرطاجة ليكون فخرا لها ولسيطرتها (٣٥) .كما تعتبر التراث الوحيد الذي نستطيع ان نستقي منها معلومات عن ماضي هذه الحضارة (٣٦) .وقد أشارت كتابات حنون القرطاجي والمسجلة في معبد مولوك (molack) والمكتوبة باللغة القرطاجية القديمة ان رحلته تكونت من ستين سفينة من ذوات الخمسين مجدافا وكانت محملة بعدد ضخم من الرجال والنساء خرجوا من مدينة قرطاجة واتجهوا نحو المحيط الأطلسي واتجهوا جنوبا حتى وصلوا المنطقة ر يودي أور riadar وهناك قاموا بتأسيس مركز استيطاني استخدم فيما بعد كقاعدة انطلاق نحو الجنوب الغربي لإفريقيا حيث وصلوا الى نهر السنغال – وجزيرة الرأس الاخضر (٣٧) وقد ايدت الكتابات الجغرافية الرومانية هذه الرحلة حيث ذكرها الجغرافي الروماني وصاحب أول دائرة معارف (بليني)بل أكد ان حنون القرطاجي او هانو قد وصل برحلته الى قارة أفريقيا ودار حولها الى ان وصل الى الجزيرة العربية (٣٨) ومن الرحلات الفينيقية أيضا تلك الرحلة التي قام بها (هميلكو) سنة ٤٨٠ .ق.م. عندما توجه نحو المحيط الأطلسي واتجه شمالا حتى وصل مداخل بحر البلطيق الغربية وقد أورد معلومات كثيرة عن هذا المناطق وعن طبيعة السواحل.

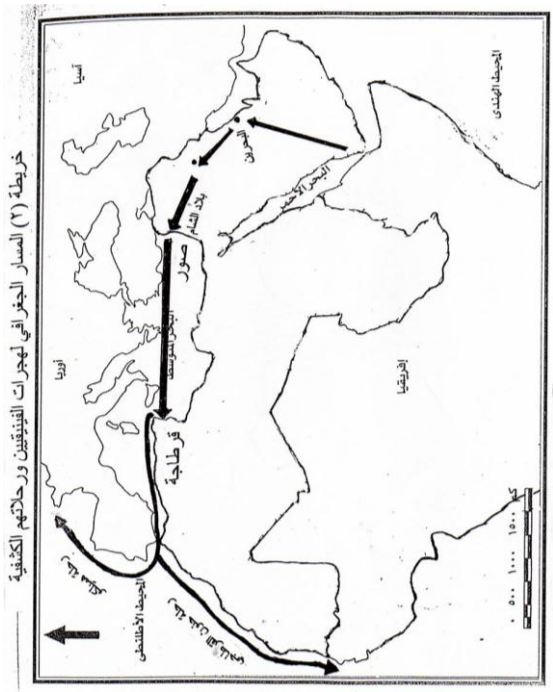

خريطة (٢) المسار الجغرافي لهجرات الفينيقيين ورحلاتهم الكشفية

أوربا الغربية وعن النباتات التي تعيش فيها . كما ان وصول الفينيقيين الى الى انجلترا ساعدهم على نقل بعض المعادن منها مثل القصدير الذي كثيرا ما استخدموه في صناعتهم : وتجدر الإشارة الى ان الفينيقيين لم يكونوا شعبا يميل الى الحرب على نحو ما كانت علية الحضارات القديمة مثل البابليين والمصريين القدماء وإنما كانوا شعبا تجاريا بالدرجة الاول كما إنهم احتفظوا بالمعارف الجغرافية والدروب والطرق التجارية أسرارا لديهم وذلك بغرض الحرص على تجارتهم واستمرارها في أيديهم والتي تعتبر مصدر رخائهم وثرواتهم ومن ثم لم يكن للفينيقيين أي نظريات جغرافية نتيجة عدم وجود أي معلومات لديهم تثبت معرفتهم في تطور الفكر الجغرافي او ربما لأنهم لم يرغبوا في انتشار ما لديهم من معلومات علمية فقد كانوا يهتدون في البحر والنجوم ليلا ولعل قصورهم في الجانب العلمي يرجع الى أنهم لم يكونوا أمه مستقره في وادي النيل ودجلة والفرات التي كانت الزراعة أساس حضارتهم وتقدمهم . لقد شغلت الرحلات التجارية البحرية والبرية الفينيقيين عن إرساء حضارة ثقافية واسعة اذ لم نعثر على ما يدل على ذلك وهذا راجع الى حرصهم على الاحتفاظ بأسرارهم لأنفسهم دون غيرهم . فقد قام الفينيقيون برحلات في البحر الأحمر حيث وصلوا الى زنجبار على الساحل الشرقي لإفريقيا كما قاموا برحلات في حوض البحر المتوسط وتمكنوا من الوصول الى جبل طارق او ما يعرف ((بأعمدة هرقل)) مندفعين الي المحيط الأطلسي وتمكنوا من تأسيس مراكز تجارية على سواحله مثل قادس على الساحل الأوربي ومن الجدير بالذكر ان الكشف الجغرافي لساحل غرب أفريقيا راجع الى جهود الفينيقيين (٣٩) كما ان هناك عدة مقالات تفيد بان الفينيقيين قد وصلوا الى أمريكا قبل اكتشاف كريستوف كولو مبس لها بعده قرون . وقد تركوا أثارا واضحة وكتابات مدهشة نجدها على صخرة دايتون في الولايات المتحدة وصخرة غافيا في عاصمة البرازيل والصخرة العظيمة التي تسمى بالحجره المنحوته في ولاية برا هيبا البرازيلية وعلى الصخور ألواقعه على ضفاف ألامزون والأنهر التي تصب فيه كما نجدها في جبال الانديز وبطاح الأرجنتين وفي لغة وعبادة قبائل التسندال في المكسيك.

رابعا : العرب الجزر يون

من دراسة ما توصل اليه العرب الجزر يون (٤١) . في العصر الجاهلي من معارف لابد لنا من الاعتماد على بعض المعلومات العامة التي حفظها لنا العرب أنفسهم عن تلك الفترة والتي تفتقر في كثير من الأحيان الى الدقة العلمية في معلوماتها المتناقلة بين

الأجيال . ولهذا نجد ان دور العرب في العصر الجاهلي يبدوا عبر التاريخ الحضاري للشرق القديم إنهم حصلوا على معلومات جغرافية شانهم في ذلك شان كل الشعوب التي تعيش بالفطرة فكانوا على دراية تامة بمواقع الأشياء في بيئاتهم وهو مانلاحظه في كتب التاريخ والأدب بما عرف عن العرب قبل الإسلام من تصورات واضحة لبلادهم ففي شعرهم ونثرهم الشيء الكثير عن طبيعة بلادهم وصفاتها وإشارات عديدة الى الأماكن الجغرافية وما بها من طرق ومسالك (٤٢) كقصيدة لبيد التي أشار فيها الى الكثير من الأماكن التي كانت تحيط . بمدينته

والتي يقول فيها

لهند بأعلام الأغر رسوم
الى احد كأنهن وشوم
فوقف فسل فاكناف ضلع
تربع فيها تارة وتقيم (٤٣)

او قول حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) في وصف بعض المواقع التي قضى فيها وقتا طيبا في ضيافة قبيلة ال جفنه

لمن الدار او حشت بمعان
بين أعلا اليرموك فالحماني
فالقريبات من بلاس فدار
يافسكاء فالقصور ألدواتي (٤٤)

كما ان الشعراء كانوا يضيفون حتى الطبيعة ونمط الحياة رعوية كانت أم زراعية كقول الاصطخري واصفا بلاد مهره قصبة (الشحر) وهي بلدة فقيرة حين قال ملمحا الى شحة النخل وكثرة الإبل واللبان:

اذهب الى الشحر ودع عمانا
إلا نجد تمرا نجد لبانا (٤٥)

كما كان المطر هاجس الشعراء الأثير فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائد الشعراء العرب قبل السلام من ذكر الرياح والسحب والأمطار والعواصف كقول احد الشعراء :

كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لاريث ولا عجل (٤٦)

وعلى العموم فان العرب الجزريين لم يكونوا في عزلة عن العالم الخارجي بل كانت سفنهم تسعى في البحار والمحيطات لنقل البضائع في محيط التبادل التجاري بين الهند وأفريقيا الشرقية من ناحية وجنوب الجزيرة العربية وبادية الشام من ناحية أخرى . كما ان قوافلهم كانت تتنقل مابين اليمن والشام في رحلتي الصيف والشتاء التي ذكرها القران الكريم في سورة قريش ((لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا . رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤٧) ولهذا فقد استفادوا من هذه الرحلات التي تمثلت في طرق القوافل والرحلات البحرية الكثير من المعلومات عن الحضارات التي كانت سائدة في عصرهم والتي كانت غنية في معارفها مثل حضارة الإغريق والفرس والرومان في الجغرافية الفلكية التي قام بجمعها التجار العرب إبان رحلاتهم الطويلة من ذكر للاماكن والجبال وموارد المياه ومراكز العمران التجارية وهذا دليل على معرفتهم المبكرة في مجال الجغرافية الوصفية غير ان قوة ملاحظاتهم للظواهر الطبيعية والبشرية ترجع الى طبيعة الحياة نفسها (٤٨) وحفظ العرب الجزر يون أخبارهم ومعارفهم الجغرافية في صحف ونقوش ورقوق على جدران المباني والصروح والاضرحه مستخدمين خطوطا مختلفة (المسند في اليمن و الجبري في الحجاز) كما استخدموا الحرير وجلود الغزلان والتي تعرف بالرقوق لكتابة أشعارهم ورسائلهم ومعارفهم ٠ لقد ظهرت معرفة العرب المبكرة في مراقبة التغيرات التي تطرأ على القبة السماوية مما ساعدهم على توقيت ساعات الليل .كما لعب القمر عند العرب دورا مهما في حياتهم الاجتماعية حيث يسهرون ليلا على ضوئه في مجموعات لغرض السمر ونتيجة لمراقبتهم لتغيرات وجه القمر لاحظوا علاقة القمر بالمجموعة الشمسية التي تتغير على التوالي حيث حددوا منازلها بنحو ثمانية وعشرين منزلا أطلقوا عليها اسم منازل القمر وأعطى لكل واحد منها اسما عربيا (٤٩) لقد كان العرب في العصر الجاهلي يعرفون هذه المنازل القمرية باسم النوء (جمع أنواء) كما أنهم نسبوا سقوط الأمطار الى غروب المنازل عند الفجر والرياح الى طلوعها (٥٠) فلعبت بذلك دورا كبيرا في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية لقد كان القمر من أهم الأجرام السماوية التي اهتم بها العرب القدماء لأنهم كانوا يعتبرونه . أنيسا وسميرا وهاديا للسبيل في سرى الليل والسفر فلاحظوا علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة التي اهتدوا من خلالها – كما يمكن ملاحظة ان العرب الجزريين قد توصلوا الى فهم بعض الظواهر المناخية لحالة تغيرات الطقس وتحديد الفصول الملائمة للزراعة نتيجة لملاحظاتهم اليومية للحياة الصحراوية ٠ ومن خلال الاستعراض هذا يتبين لنا ان العرب في العصر الجاهلي كانت لديهم كغيرهم من الحضارات البدوية التي سبقتهم عبر التاريخ – معرفة بتطور الفكر الجغرافي إضافة الى معرفتهم لمواقع النجوم والكواكب الفلكية ومنازل القمر والأحوال الجوية المتغيرة وأماكن المياة وخطوط سير القوافل التجارية وهي معرفة محدودة وسطحية وغير موثقة

الخاتمة

عندما نشأ الانسان الاول كان كل شيء في حياته محكوم بطابع مكاني محدود لا يتعدى قطر دائرة بيئته الممتدة عبر المسافة التي يقطعها او يراها في حياته العامة وعلى هذا الأساس ومن محدودية بيئة الانسان الاول ٠ كان تفكيره محدودا أيضا ٠ ولذلك فان عملية تحديد البداية الأولى للفكر الجغرافي لدى الانسان عملية صعبة للغاية لان معرفة الانسان للظواهر المحيطة به بدأت مع محاولاته الأولى للتأمل والإدراك لتفسير هذه الظواهر ٠

وعندما تقدمت معرفة الانسان وتوسعت مداركه بتوسع بيئته وتنوع أنماط حياته بدأ افقه الجغرافي بالاتساع وتراكمت المعلومات والمعارف لديه ٠لقد كان نصيب المراكز الحضارية القديمة من المعرفة كبيرا حيث أرست معارف سكان ما بين النهرين والمصريين القدماء والفينيقيين أرست أساسا قوية استندت عليه الحضارات العالمية اللاحقة ان المعارف الجغرافية لدى العراقيين القدماء والمصريين والفينيقيين والعرب الجزريين ارتكزت على دعامتين أساسيتين :-

الأولى : اتسمت بمظهرها الفلكي المتابع للسماء وما فيها من أجرام ٠

والثانية: تميزت بمحاولات الاستكشاف الجغرافي للظواهر المحيطة ٠ وقد ظلت هاتان الدعامتان أساس الفكر الجغرافي لدى شعوب حضارات الشرق القديمة وبذلك نجد ان هذه الحضارات قد اشتركت بجوانب معرفية جغرافية

كثيرة يمكن تلخيصها

١- الاهتمام بمعرفة الزمن وقياسه .

حيث اعتمده سكان هذه الحضارات على ظاهرة تعاقب الليل والنهار وتباين حركة القمر الشهرية وتغير الفصول في محاولاتهم تحديد العلامات الزمنية كما اهتموا بالأجرام من نجوم وكواكب لتحديد الزمن بل وصل بهم الامر الى تاليه هذه النجوم والكواكب ولعل البابليين القدماء قد انفردوا بكونهم أصحاب أول المحاولات لتقسيم اليوم الى ساعات والساعات الى أجزاء اصغر .

٢- الاهتمام برسم الخرائط

حيث برع سكان بلاد النهرين ومصر برسم الخرائط الزراعية والعسكرية وخرائط استخدامات الأرض وكانت هذه الخرائط أساس المعرفة الجغرافية لدى هذه الحضارات

لعل خارطة مدينة (اومه) تل جوخه وخارطة مدينة لكش وخريطة مدينة نفر هي من أهم الادله على دقة وقيمة هذا النوع من الإبداع

٣- تحديد الاتجاهات

وقد اعتمد سكان هذه الحضارات على الشمس في تحديد الاتجاهات الرئيسيه فالجهة التي تشرق منها الشمس كانت اتجاه الشرق والتي تغرب فيها كانت تمثل جهة الغرب ثم قسمه اعلى الشي شمالا و مابين الشرق والغرب فاسموه جنوبا .

وفي الليل اعتمد هذه الحضارات على النجوم الثابتة لحركة الأرض كالنجم القطبي في تحديد الاتجاهات .

٤- الاستكشافات الجغرافية

حيث كان للفينيقيين قصب السبق في هذا المجال ساعدهم في ذلك حبهم للبحر وامتلاكهم لأسرار المعرفة الملاحية . الامر الذي جعلهم ينشرون مراكزهم التجارية على امتداد الساحل الشرقي و الغربي للبحر التوسط وامتد نشاطهم ليشمل الساحل الغربي لأوربا وساحل أفريقا الغربي مما أهلهم لان يكونوا أسياد البحر الفعليين ٠

طيلة الفترة التي امتدت فيها حضارتهم كما ان المصريين القدماء والعراقيين القدماء كانت لهم محاولات استكشافية ولكنها لم تكن بمستوى الاستكشافات والرحلات الفينيقية.

الهوامش

١- هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى (ترجمة : ميخائيل خوري) ط٢ منشورات دار مكتبة الحياة ٠ بيروت : ١٩٥٠ ص١٨

٢- جلال مظهر ٠ اثر العرب في الحضارات الأوربية – ط٢ ،منشورات دار الرائد بيروت ، ١٩٦٧ ص١٢

٣- محمد شقيق غربال ٠الشرق الإسلامي الحديث، القاهرة، ١٩٣٨ ، ص٤

٤- عبد العظيم خضر ، المسلمون وعلم الجغرافية ط ١ ، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر السعودية ١٤٠٧ هجري ٠ ص٣٩ ٠

٥- شريف محمد شريف ، تطور الفكر الجغرافي ط١ ٠ مكتبة الانجلو مصرية ٠ القاهرة –ب-ت-٠ص٤٣

٦- المصدر السابق والصفحة نفسها

٧- نفس الصفحة

٨- المصدر نفسه ص٤٤

٩- عبد العظيم خضر ، مصدر سابق ص٣٩

١٠-شريف محمد شريف ، المصدر سابق ٧٢

١١- نفس المصدر السابق ص٤٩

١٢-المصدر نفسة ص٤٨

١٣-فوزي رشيد ٠ الحضارات الشرقية القديمة ٠ مطبعة الفاتح طرابلس ٢٠٠٤ ص١١٣

١٤- المصدر السابق ص١٢١

١٥- نفس المصدر ص١٢٣

١٦- شريف محمد شريف مصدر سابق ص٤٠

١٧- عبد المنعم ماجد تاريخ الحضارات الإسلامية في العصور الوسطى ٠ مكتبة الانجلو مصريه القاهرة٠ ١٩٦٣ ص٢٣٦

١٨- عبد العظيم خضر ، مصدر سابق ص١٥

١٩- شريف محمد شريف، مصدر سابق ص ٥٨

٢٠-جورج فضل حوراني ٠ العرب والملاحة في المحيط الهندي٠ ترجمة يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٥ ص١٢٨

٢١- شريف محمد شريف مصدر سابق ص٦٢

٢٢- عبد العظيم عبد الرحمن خضر ٠ مصدر سابق ص٤١

٢٣- الصفحة ذاتها

٢٤- شريف محمد شريف مصدر سابق ص٨٧

٢٥- المصدر نفسه ص٨٨
٢٦- طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١ مطبعة العاني٠ بغداد، ١٩٥١ ص٢٧٦
٢٧- فوزي رشيد مصدر سابق ص٤٧
٢٨- بريستيد جيمس هنري تاريخ الشرق القديم (ترجمة احمد فخري) مكتبة الانجلو مصريه القاهرة ١٩٦٢٠ ص٢٣٥
٢٩- فوزي رشيد، مصدر سابق، ص٤٨
٣٠- عبد العظيم عبد الرحمن خضر، مصدر سابق ،ص٤١
٣١- المصدر نفسه ص٤١
٣٢- شريف محمد شريف . مصدر سابق٠ ص١٠٠
٣٣- محمد أبو المحاسن عصفور . المدن الفينيقية . دار النهضة بيروت ١٩٨١ ص٥
٣٤- المصدر نفسه ص٦
٣٥- إميل فيليكي غوتيه ، ماضي شمال افريقا٠ تعريب (هاشم الحسيني) ط١ ، مكتبة الفرجاني . طرابلس ١٩٧٠ ص٣١
٣٦- نفس المصدر والصفحة نفسها
٣٧- يسري الجوهري ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الاسكندريه ١٩٧٦ ص٣٠
٣٨- نفس المصدر والصفحة نفسها
٣٩- شريف محمد شريف . مصدر سابق ص١١٤
٤٠- الدهماني سالم الدهماني ، نحن من اكتشف الأمريكتين ، مكتبة أبو عجيله ، طرابلس٢٠٠٤٠ ص١٧
٤١- المقصود بالعرب الجزر يون هنا سكان شبة الجزيرة العربية ٠ انظر ٠ رمضان عبد التواب فصول في فقه اللغة ٠ مكتبة الخانجي ٠ القاهرة ١٩٧٩ ص٤٢-٤٣
٤٢- عبد الوهاب محمد وهيبة مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية ٠ جامعة بيروت العربية ١٩٧٩ ص٧
٤٣- كراتشوفيسكي ٠ تاريخ الأدب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح الدين عثمان) الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ج١ ص٤٣
٤٤- نفس المصدر السابق ص٤١
٤٥- ابن خرذاية ٠ المسالك والممالك ص٤١
٤٦- كراتشوفيسكي مصدر سابق ص٤١
٤٧- القران الكريم الآية ١- ٤ سورة قريش
٤٨ كراتشوفيسكي مصدر سابق ص٤١
٤٩- عبد العظيم عبد الرحمن خضر٠ ص٤٤
٥٠ المصدر السابق ص٢٣

المصادر والمراجع

١- القران الكريم
٢- إميل فيليكي غوتية ، ماضي شمال أفريقيا (تعريب هاشم الحسيني)ط١ مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ١٩٧٠
٣- الدهماني سالم الدهماني ، نحن من اكتشف الأمريكتين ، مكتبة ابو عجيلة ، طرابلس ، ٢٠٠٤
٤- ابن خردانة ، المسالك والممالك
٥- برستيدجيمس هنري ، تاريخ الشرق القديم (ترجمة احمد فخري) مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة ١٩٦٢
٦- جلال مظهر ، اثر العرب في الحضارة الاوربية ، ط٢ ، منشورات دار الرائد بيروت ١٩٦٧
٧- جورج قضل جوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي (ترجمة يعقوب بكر) القاهرة ١٩٦١
٨- رمضان عبد التواب،فصول في فقه اللغه،مكتبة الخانجي،القاهره،١٩٧٩
٩- شريف محمد شريف ، تطور الفكر الجغرافي ، ط٢ ، مكتبة الانجلو – المصرية القاهرة ب ٠ ت
١٠- طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ مطبعة العاني بغداد ١٩٥١
١١- عبد العظيم عبد الرحمن خضر ، المسلمون وعلم الجغرافية ،ط. مؤسسة المدنية للصحافة والنشر ، السعودية . ١٤٠٧هـ
١٢- عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو مصرية . القاهرة – ١٩٦٣
١٣- عبد الوهاب محمد وهيبة ، مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية ٠جامعة بيروت العربية – ١٩٧٩
١٤- فوزي رشيد ، الحضارات الشرقية القديمة ،مطبعة الفاتح – طرابلس ٢٠٠٤
١٥- كراتشوفيسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ٠الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ط ١ ب –ت
١٦- محمد ابو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، دار النهضة٠ بيروت ١٩٨١
١٧- محمد شفيق غربال ، الشرق الإسلامي الحديث ، القاهرة ، ١٩٣٨
١٨- محمد محسوب ،العالم العربي دراسة جغرافية ، دار الفكر العربي٠ القاهرة -٢٠٠٢
١٩- هنري فرانكفورت فجر الحضارة في الشرق الادنى (ترجمة ميخائيل خوري ط٢ منشورات دار الفكر مكتبة الحياة ، بيروت - ١٩٥٠
٢٠- يسرى الجوهري ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، منشاة المعارف – الإسكندرية ط ٣ -١٩٧٦